

لو كنا أصحاب قضية

هل نحن أصحاب قضية ؟

لقد هزّ هول المأساة اللبنانية نفس الإنسان العربي في الأعماق على نحو
أضحى السؤال معه وارداً ، لا بل ضاغطاً .

ما من قضية الا وتقوم على الحق ، فهل نحن اصحاب حق ؟

قديماً قيل : ما ضاع حق وراءه مطالب . فإذا كنا نحن أصحاب حق ،
فكيف نحمي حقنا من الضياع بعناد المطالبة ؟

بم نحن نطالب ؟

أم هل ادركنا منطق العصر فاقتنعنا بأن الحق للقوة وسلمنا تالياً بأن القضية
هي التي تقوم على القوة .

إذا كان ذلك ، فماذا نملك من القوة لنقول إننا أصحاب قضية ؟

لعلنا فقدنا القضية عندما اصبحنا نقتني الكثير وأضحى همنا المحافظة على
ما نملك .

لعلنا فقدنا القضية عندما اصبحنا اصحاب ثروة وبتنا نخشى على ثروتنا من
الضياع . وكنا في الماضي نتصور ان ثروتنا هي قوتنا . كنا نتخيل ان ثروتنا سلاح
نستطيع ان نشهره في وجه اعدائنا دفاعاً عن حقنا . كان ذلك في الماضي الغابر ،

الغابر في مقياس الرؤيا والموقف والايان لا في مقياس الزمان ، أي منذ عقد من السنوات فقط . وهذا لا يعني ان الثروة لا تصلح سلاحاً ، وإنما يعني ان ثروتنا غدت بسحر ساحر سلاحاً في يد غيرنا ، إذا شهر ففي وجهنا .

لعلنا فقدنا القضية عندما اصبحنا اصحاب مشاريع مصرفية وصناعية وزراعية وسياحية وبتنا نخاف على مشاريعنا ، عندما اصبحنا أهل نبط وبتنا نخاف على نفطنا ، عندما اصبحنا نملك الأموال وبتنا نخاف على أموالنا ، عندما كثر متاع الدنيا من حولنا فلم نعد نبصر من الدنيا الا متاعها .

لعلنا فقدنا القضية عندما اصبح الحق يقاس بشبر الأرض ، فاذا فقدنا شبراً منها لم نعد نطمح الى غير استرجاعه ، واذا فقدنا متراً اصبح استرجاع شبر منه كسباً نصبو اليه .

لعلنا فقدنا القضية عندما اصبحت حدود الحق حدود صحراء سيناء او الضفة الغربية وغزة أو الجولان ، عندما أصبح حقنا على اديم الأرض ولم يعد مرتبطاً بسيادة أو عزة أو كرامة ، واصبح الحق هو حاضر جيل معاصر وليس مصير اجيال مقبلة .

اذا كان لنا ان نهدر يومنا ، ويومنا لنا ، فهل يجوز ان نفرط بـغـدنا ، والغد لأولادنا ؟

إذا كان من حقنا أن نكتفي بمجرد العيش ، بمجرد البقاء ، فهل يحق لنا ان نحرم احفادنا من حق الحياة ؟ فستان ما بين العيش والحياة . العيش ببقاء الرمق ، والحياة بالرفعة والعزة والكرامة .

لو كنا ، نحن العرب ، أصحاب قضية لقال كل رئيس عربي ما قاله مسؤول لبناني يوماً عندما خاطب الصحافة بالقول ان اللبنانيين يؤثرون بقاء الحال كما هي على حل يتتقص من سيادة وطنهم أو كرامته ، لا بل لقالوا اكثر .

لو كنا ، نحن العرب ، اصحاب قضية ، وكانت قضيتنا هي حقنا وكرامتنا وسيادتنا ، لما عرض السادات عنفوان مصر ثمناً لصحراء سيناء ، ولما بدا وكأن مطلب الفلسطيني قد تقلص الى دويلة في الضفة الغربية ، ولما طرح الجولان في التداول وكأنما هو مطلب سوريا ، ولما لاح وكأنما الأردن يتهيّب عدواناً جديداً يخسر فيه قطعة من أرضه . . . لا بل لما خشي بلد عربي توقفا في الحركة السياحية او تراجعاً في الانتاج الصناعي او تدهوراً في سعر النفط او تجميداً لارصدة مالية .

لو ان العرب ذهبوا أبعد من ذلك فلم يكتفوا بالقول انهم يفضلون رداءة الوضع الحالي على التنازل عن حق لهم ، لو أنهم اجتمعوا على التمسك بحقهم والاعتصام بكرامتهم والذود عن سيادتهم مهما كلف الأمر ، لا يرهبهم تهديد من اسرائيل لبقعة من بقاع ارض العرب الواسعة من المحيط الى الخليج ، لما أحسوا بالضعف كما يحسّون اليوم في ضنّهم بما يملكون ، وكان التحدي الذي لا تقوى اسرائيل على مواجهته . فالتمدد يجب ان يرهب اسرائيل ولا يرهب العرب نظراً الى اتساع رقعة البطاح العربية ومحدودية الامكانيات الاسرائيلية . والا فكيف نصدق قولاً صمّت آذاننا من كثرة ترداده : وهو أن أمة من اربعة ملايين لا يمكن أن تتحكم بأمة ذات مائة وخمسين مليوناً ، فإذا تمكنت هذه من تلك لفترة من الزمن فإنها لن تستطيع المحافظة على قبضتها عليها إلى الأبد .

لماذا يصير العرب على التغلب على عدوهم بالسلاح الذي يتفوق عدوهم به عليهم ، أي بالتكنولوجيا العسكرية المتطورة : الطائرة بالطائرة والدبابة بالدبابة والمدفع بالمدفع . لماذا لا يبني العرب استراتيجيتهم ، ولو لمرة واحدة ، على المعطيات التي يتميزون بها عليه : أي العمق الجغرافي والعمق البشري والعمق الاقتصادي ؟

يقول بن ناتانيا هو ، نائب رئيس البعثة الاسرائيلية في واشنطن في هذا الصدد (انترناشيونال هيرالد تريبيون ٣٠ ديسمبر ١٩٨٢) : « ان اسرائيل تملك

بلا شك المعنويات والتدريب وسائر الميزات النوعية على العرب . ولكننا نقرب
بسرعة من النقطة التي يصبح بعدها التفوق الكمي العربي تفوقاً نوعياً . فهل
يعني العرب من كوامن قوتهم ما يقض مضجع الإسرائيل .
وبعد ، يبقى السؤال الكبير : من نحن وما هي قضيتنا ؟

لكي يجوز لنا ان نتحدث عن انفسنا بالقول : نحن العرب ، لا بد ان
تكون لنا قضية واحدة تجمعنا . ان الذي نجح في تفتيت جبهتنا وتفريق صفوفنا
نجح في طمس قضيتنا ، لا بل نجح في طمرها تحت جبل من المشاكل
والمشاغل . وليس ما يجب بصر الناس عن قضاياهم كمشاكلهم ، وليس ما
يشغل الشعوب عن شؤونهم المصيرية مثل شجون حياتهم اليومية .

تجيب بصرك على العالم العربي فتكاد لا تجد دولة إلا والتوتر يسود علاقتها
مع جارتها ، وتجد بلداناً تشكو من الفقر او البطالة او التخلف ، وتجد اخرى
قلقة على ثرواتها او اموالها او اسواق منتجاتها او اسعارها ، وتجد بعضها مروعة
بشبح تيارات سياسية تنذر باجتياحها من الخارج .

صاغت قضية العرب في حمة المشاكل التي أفرخت في وجههم وحواليهم ،
وما أخرجهم الى جلاء رؤيتهم ، ما أخرجهم الى تخليص قضيتهم مما علق بها من
أدران المشاكل المفتعلة ، ما احراهم بانقاذ جوهر قضيتهم من شعاراتها البالية ، لا
بل ما احراهم بالعودة الى ذاتهم ، الى محاسبة انفسهم ، الى التبصر بقيمتهم ، الى
اعادة صوغ قضيتهم في ضوء ما مر عليهم من تجارب قاسية .

ما لم نفعل ذلك ، سقط حقنا في القول بأننا اصحاب قضية او حتى في
القول بأننا أمة تستحق الحياة .

وبعد ، كثيراً ما نتوقف ، عندما نتحدث عن العرب مؤاخذين ، لوسائل
انفسنا عما اذا كنا منصفين اذ لا نميز في حكمنا بين الشعوب وقادتها . لم تكن

وحدة المشاعر والطموحات والتطلعات ، لا بل وحدة القضية في الجوهر ، بين
العرب لتغيب لولا غياب الديمقراطية في اقطارهم .

بيروت في ٣/٥/١٩٨٣ .